رحلة ابن رُشَيد(1)

تاريخ حافل للثقافة والفكر في القرن السابع

تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة
تقديم : عبد الكريم غلاّب

في بداية الستينات تعرفت على الصديق العالم المحاضر الدكتور محمد الحبيب ابن الخوجة في زيارة علمية قام بها إلى المغرب. والدكتور ابن الخوجة يدخل باب الصداقة والودّ من غير استئذان، ومن أوسع أبوابه. ولذلك لم يكد يصل إلى المغرب حتى تعرف عليه، وتعرف على معظم المثقفين بالمغرب، في مختلف اتجاهات الثقافة. وطرق باب دار الفكر - مقر اتحاد كتاب المغرب آنذاك - وشهد وشارك في النشاط الثقافي والمناقشة الجادّة التي كانت تحفل بها الدار. وفي بضع ساعات أصبح وكأنه عضو في الاتحاد، وبين مؤسسيه، يعالج اهتمامات الاتحاد الثقافية لأنها نفس اهتمامات تونس الثقافية.

منذ تعرفنا على الدكتور ابن الخوجة وهو يتحدّث عن ابن رشيد، لأن اهتمامه العلمي، بعد أن حصل على الدكتوراه من باريس، انصبّ على الرحالة العالم المؤرخ السبتي ابن رُشيد، ولأن رحلاته للمغرب وإسبانية عن طريق المغرب، كانت من أجل ابن رُشَيد. فكان رحالة من أجل «الرحلة». ولم تقل رحلاته إجهاداً وبحثاً عن ابن رُشيد نفسه. ولعله وجد من المتاعب في وقت الطائرات ما لم يجده ابن رُشيد في وقت الجمال والقوارب الصغيرة !

---

1) ابن رُشَيْدْ، أبو عبد الله محمد بن عمر الفهري السبتي، «مِلْءُ الْعَيْبَة بِمَا جُمِعَ بطُول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة»، تحقيق محمد الحبيب ابن الخوجة، جزءان، الثاني سنة 1402 = 1982. الثالث سنة 1983، تونس.

ذلك أن ابن رُشَيد أتعب نفسه، وأتعب الناس. وفي مقدمة من أتعبهم، ابن الخوجة. فكتب رحلة فريدة من نوعها، وتعرضت رحلته لما تتعرض له الكتب الفريدة النادرة، تحولَتْ في الآفاق، وَفُقِد بعضها في مختلف الآفاق، وَتَلِفَت أوراقٌ منها واختلطت أخرى.

البحثُ عن الضائع والتَّالِفِ والمختلط من هذا الكتاب الفريد، وإعادته سالماً مصحَّحاً الى الدارسين والباحثين، هو بعض متاعب الدكتور ابن الخوجة، وهو يحقق رحلة ابن رُشَيد المسمَّاة ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة في الوجهة الوجيهة إلى الحرمين مكة وطيبة.

ومن هنا أيضا جاءت الرحلة الطويلة التي قام بها الدكتور ابن الخوجة في مدى عشرين سنة لتحقيق رحلة قام بها مؤلفها في مدى ثلاث سنوات (683 هـ - 686 هـ) لأَن متاعب الدكتور ابن الخوجة في البحث عن الأَصل وجمع نسخه، ومقابلتها وتحقيقها وبحثها، لم تكن تقل عن متاعبها مع المطبعة التي تقف في كثير من الأَحيان - رغم التقدم الفني - عاجزة عن إخراج كتاب علمي، في وقت لا تعجز فيه عن طبع كتب أُخرى ليست بمستوى كتاب «ملء العيبة».

☆ ☆ ☆

وقد قام ابن رُشَيد برحلته في عصر بني مرين (بين بداية القرن الثالث عشر ومنتصف القرن الخامس عشر). واجتاز المغرب في هذا العصر ظروفاً سياسية صعبة نظراً للتحولات التي كانت تكتنف منطقة الغرب الإسلامي جميعه بما فيه الأندلس. ونظراً لرغبة المرينيين في بعث المجد السياسي الكبير الذي كوَّنه للمغرب المرابطون، وبلغ قمته في عهد الموحدين، كانت رغبتهم في الحفاظ على الأَندلس وفي توحيد المغرب العربي، وفي استمرار نشر الإسلام في إفريقية، كان كل ذلك يملأ عهدهم السياسي في بدايته بالمتاعب ولو أنهم عرفوا نحو قرن من الاستقرار والازدهار والعمران والغنى. ولكن

السياسة ليست كل شيء في ازدهار الحياة الثقافية، فقد عرف العهد تبَادلاً ثقافياً مهماً، وسعة في الأفق، وحرية واسعة لإيواء كثير من المثقفين الذين قدموا من الأندلس، وفي استقطاب كثير من المثقفين من مختلف أنحاء البلاد، ورفع مكانتهم وإعلاء شأنهم. وتنفس المثقفون المغاربة الصعداء، فتبادلوا المعرفة بينهم، وهاجروا في سبيلها. وكان منهم رحالون كبار، يذكر التاريخ من مشاهيرهم ابن رُشَيد والعبدري وابن بطوطة.

وما من شك في أن الرحالين ـ الحجاج بخاصة ـ كانوا كُثراً، ومنهم علماء ومثقفون. ولكن الكتاب منهم كانوا ـ فيما يبدو ـ قلة. ويعطي هؤلاء الثلاثة صورة عن اتساع أفق الثقافة، وعن دقة الملاحظة والرغبة في المعرفة والاتصال الفكري (ولو أن ابن بطوطة دون زميليه في مجال الاتصال العلمي والأدبي، ويفوقهما في مجال الاتصال الاجتماعي ودقة الملاحظة وقوة المغامرة).

ولا غرابة في ذلك، فقد انتج عصر المرينيين حياة عقلية واسعة، وظهرت فيه شخصيات بارزة، وعاش في المغرب من غير المغاربة أفذاذ استفادوا من المغرب علماً، وأفادوا بعلمهم وأدبهم، فكانوا بذلك مدينين للمغرب.

عرف هذا العصر من الأدباء والعلماء ـ مثلا ـ، مالك ابن المرحل السبتي أو المالقي، (ولد سنة 604 هـ)، وقد تعاصر مع ابن رُشَيد، وتبادل معه صداقة علمية. وعبد العزيز الملزوزي المكناسي (توفي سنة 697 هـ)، وابن رشيق الأديب العالم المؤرخ الهجاء (توفي سنة 696 هـ) بتازة، وابن عبد الملك المراكشي (634 هـ ـ 703 هـ)، صاحب «الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة»، وأبا العباس أحمد بن البناء المراكشي (654 هـ ـ 721 هـ)، أكبر رياضي عرفه الغرب الإسلامي. وممن وجد في المغرب في هذا العصر، علماء من الشرق والغرب، من الأندلس وتونس، في مقدمتهم ابن خلدون

(732 هـ ـ 808 هـ)، وقد قضى بالمغرب أزهر حياته التكوينية والسياسية والثقافية، فانتقل إلى فاس وسنه ثلاث وعشرون سنة، أي سنة 755 هـ، وغادر المغرب سنة 763 هـ، وهي سنوات حافلة بالانقلابات والاضطرابات السياسية، وحافلة أيضاً بالمثقفين والعلماء والأُدباء الذين أخذ عنهم ابن خلدون في جامعة القرويين، ذات المجد العلمي الزاهر؛ وفي مقدمتهم كذلك لسان الدين ابن الخطيب الأندلسي (713 – 776 هـ = 1313 – 1374م) وقد تردد على المغرب سفيراً، حتى استقر به منفياً مستفيداً وكاتباً ومؤلفاً وشاعراً. وكتب مجموعة من الكتب في التاريخ والأَدب والطب. وهو كزميله ابن خلدون مغربيان فكرياً وثقافياً. يقول الأستاذ عبد الله عنان في كتابه عن ابن الخطيب : «إن الفترات التي قضاها ابن الخطيب من حياته في المغرب لم تكن فترات عابرة، بل كانت بالعكس فترات أصيلة، سواء بالنسبة لتطور حياته، أو بالنسبة لإنتاجه الفكري. ذلك أن ابن الخطيب قد وضع معظم مؤلفاته بالمغرب، وتأثر إنتاجه الفكري بظروف حياته، المستقرة أحياناً، المضطربة غالباً في ذلك القطر المغربي الذي أحبه، والذي شاء القدر أن يطوي فيه حياته، وأن يثوى في أرضه الثواء الأَخير.. وقد قضى ابن الخطيب أخصب حياته في المغرب، وهو يعد بلا ريب، من مفاخر المغرب، كما أنه من مفاخر الأَندلس». ومنهم ابن مرزوق الخطيب التلمساني (ولد سنة 710 هـ)، وقد أقام في المغرب منذ سنة 754 هـ، وألف في المغرب كتاباً مهماً عن الدولة المرينية، وخاصة أبا الحسن. وغامر في الميدان السياسي حتى إنه سجن مرتين على غرار ما حدث مع ابن خلدون وابن الخطيب.

في هذه البيئة العلمية وجد ابن رُشَيد، وتعلم وتثقف واتصل، بما برهنت عنه رحلته من رغبته في الاتصال العلمي. وكانت رحلته نتيجة هذه البيئة العلمية التي عرفت كذلك كثيراً من المنافسات في التحصيل والتأليف. وقد أكبره كثير من المعاصرين، لعلمه ولكتابه الفريد الذي يؤكد شخصيته وثقافته. وقد شهد له بهذه المكانة ابن الخطيب في «الإحاطة»، فلم يترك صفة علمية إلا وصفه بها من الحفظ والنقل، والأَصالة

والضبط، والإسناد والعدالة وجمع الكتب، والاضطلاع بالعربية واللغة والعروض، والتفسير والأدب والتاريخ والقرآن...

ولهذه المكانة العلمية استدعي إلى غرناطة حيث ولي مناصب علمية مهمة، منها القضاء. ثم عاد لأسباب سياسية إلى مدينته سبتة سنة 708 هـ فاراً بنفسه من المحنة.

رحلة ابن رُشَيد نوع خاص من الرحلات التي اشتهر بها المغاربة. هي رحلة علمية، رغم أن الدافع الظاهر لها هوالحج وزيارة قبر الرسول. وأغلب الرحالين المغاربة كانوا يوفقون بين أنواع الرحلات ـ وخاصة الحجازية منها ـ فتكون رحلاتهم علمية دينية في نفس الوقت، لأنهم لا يفرقون بين العلم والدين. فالعلم عندهم تدين، والدين عندهم علم. ولذلك فأغلب الرحالين الذين ذهبوا للحج أطالوا طريقهم فمروا بعواصم العلم ليستفيدوا ويفيدوا، وليدرسوا ويعلموا في نفس الوقت.

وامتاز ابن رُشَيد بأنه لم يهتم إلا قليلاً بالرحلة «السفرية» في كتابه هذا، وإنما انصب اهتمامه على الرحلة العلمية من خلال العلماء والمثقفين الذين اتصل بهم، وحاورهم رواية ودراية وتعلماً واستجازة، فاستفاد منهم وأفاد عنهم من خلال التراجم التي كتبها، فترك لنا تراثاً علمياً مهماً يعتبر ثروة عن الحياة الثقافية والفكرية في المنطقة العربية الإسلامية الممتدة من الخليج إلى المحيط في القرن السابع الهجري.

وشمولية الثقافة والعلم في العصر الإسلامي الوسيط، لا يعادلها إلا شمولية فكر العلماء والمثقفين في ذلك العصر. وابن رُشَيد السبتي المغربي من بين هؤلاء المثقفين الذين كانوا يجمعون بين الأدب والفقه والحديث، ولذلك كانت اتصالاته تشمل الفقهاء والأصوليين والمحدثين والمتصوفين، والأدباء والشعراء، والنحاة والرواة، وكل من يتصل بسبب إلى العلم.

الرحلة كانت امتحاناً لرجل عالم لم يكن يقل ثقافة ومعرفة عن الذين اتصل بهم وتعرف على علمهم وثقافتهم. فهو ابن سبتة وفاس. وهما المدينتان اللتان أنارتا سبيل الفكر والمعرفة في قرون من تاريخ هذه البلاد. ولد في سبتة سنة 657 هـ، ومات في فاس سنة 721 والحكم يومئذ للمرينيين، وقد جمعوا بين ثقافة المرابطين والموحدين وعطائهم الفكري والفني للمغرب.

وثقافة أبي عبد الله محمد بن عمر بن رُشَيد جمعت بين علوم العربية والحديث والفقه والأدب. ولهذا كان يتجول في مختلف دور المعرفة القريبة من بلدته، فَدَرَسَ بالأندلس وفاس ومراكش. وكان طموحه أكبر من وطنه. فقام برحلته الفريدة، التي قصد منها إلى المعرفة بالإضافة إلى الحج، فمن سبتة إلى المرية إلى بجاية وتونس، فالأسكندرية فالقاهرة فالقدس فدمشق وغيرها من المدن السورية، ثم المدينة المنورة ومكة المكرمة. وعاد منها عن طريق مصر وطرابلس والمهدية وتونس وبونه. ثم ركب البحر إلى مالقة ورنْدة والجزيرة الخضراء فسبتة.

ثلاث سنوات قضاها في هذه الرحلة العلمية، قابل فيها عشرات العلماء والمحدثين والرواة والباحثين والأدباء. فكان يبحث في هذه الرحلة عن العلم، ولكنه لم يكن يكتفي بما يسمع، وإنما يكتب ويلاحظ ويترجم للذين اتصل بهم، حتى جمع هذه المَعْلَمَة الفريدة في تاريخ الثقافة والفكر في القرن السابع.

الرحلة في الحقيقة لا تجمع تراجم من صِنْف التراجم التي تجدها في كثير من كتب التراجم. وإنما هي مذكراتُ شاهد عصر عن علماء اتصل بهم وأخذ عنهم. فليست مصادره الكتب والآثار. ولكن مصدره الأساسي الاتصال المباشر، والاتصال أصدق طريق للمعرفة. وكان غرضه من هذا الاتصال ـ كما يقول الأُستاذ ابن الخوجة في المقدمة ـ الانتفاع بما عندهم من أخبار وأحاديث، وفهارس وسماعات، وتقييد الأسانيد والانتظام في سلكها بما يحصل عليه من إجازات.

قراءة ترجمة واحدة من هذا الكتاب الحافل بالتراجم تؤكد منهجه في الاستقصاء والبحث والاستفادة والتسجيل.

ولنأخذ مثالا من ذلك ترجمته لأبي بكر بن حبيش التي افتتح بها الجزء الثاني. فقد زاره ابن رُشيد ولزمه مدة إقامته بتونس. واهتم في التعريف به بذكر اسمه ونسبه، كما سمع منه وكما قرأ عنه، ثم يذكر منشأه فيقول عنه إنه من مُرسية، نشأ بها وتولّى القضاء فيها وتجول ببلاد الأندلس، ثم انتقل إلى بجاية، ثم إلى تونس واستقر بها.

تقرأُ هذه الترجمة فتعرف عن صاحبها علمه، وأخلاقه وشيوخه، وتلاميذه ومجالسه، والكتب التي درسها على شيوخه ودرسها لتلاميذه. ويعرف الرحالة، في إيجاز، بهؤلاء الشيوخ ومنزلتهم في العلم. ويعنى بالأخص بشعر المترجم له، يرويه كما يروي كثيرا من القصائد والمقطعات والأبيات التي رويت للمترجم له، أو أنشدت بمجالسه. وهذا الأُسلوب الاستطرادي الأَدبي ينهج فيه نهج الأَمالي، ويعنى فيه بالأخص بالشعر المعاصر له. وبذلك جاءت هذه التراجم ديواناً حافلا، لا أظن أن مؤرخي هذا العصر يستغنون عنه في دراستهم للحياة الأَدبية. وما من شك في أن رحلة ابن رُشَيد ستكون المصدر الأَهم - وربما الأَوحد - لهذه النصوص الأَدبية.

رغم هذا الاستطراد، الذي لا يكاد يخرج فيه المؤلف عن التعريف بعلم المترجم له وثقافته الأَدبية، فإن منهجه يخضع لكثير من الضبط. فبعد أن يحدثنا عن نسب المترجم وأصله، يلخص في عبارات دقيقة جماع شخصيته العلمية والأَدبية، وفي ذلك نتعرف على الرجل قبل أن يدخل في تفاصيل صلته به وكتبه وشيوخه وأشعاره.

والمثال من ترجمة ابن حبيش : قال عنه بعد أن تحدث عن نسبه وموطنه : «وكان متفنناً في العلوم، منصفاً فيما يَعِن من الفهوم، متقدم القدم في صناعة البيان، متمكن

اليد من ناصية الإبداع والإحسان، تلج دُررُ كلمه أصداف الآذان بغير استئذان، فريدٌ في دهره، أميرٌ في نظمه ونثره. أما النظم فبيده عِنانه. وأما النثر فإن مال إليه توكف له عَنانه، مع تواضع زائد، على صلة مجده عائد».

هذه الفقرة تكاد تختص كل جملة منها بمعنى، فترسم بذلك صورة متكاملة عن شخصية الرجل العلمية والأدبية والخلقية والمجدية. ورغم ما يبدو فيها من سجع غير نافر ولا متكلف، فإنها دقيقة في التعبير والتعريف.

ولا يكاد الكاتب يلتزم هذا السجع، فإن أسلوبه سلس مسترسل مركز، ينتقل بسرعة من موضوع إلى موضوع. ولذلك فالتراجم الحافل بها مركزة هادفة.

منهجية الرحالة في كتابة هذه التراجم، أنه خص كل جزء تقريباً ببلد. فالجزء الثاني مثلاً خاص بتونس عند زيارته لها في طريقه إلى الحج. والجزء الثالث عن الأسكندرية والقاهرة، والخامس خصصه للحرمين الشريفين. والسادس خصصه للعودة من الأسكندرية إلى تونس عن طريق طرابلس والمهدية، ويترجم فيه لكثير من الأعلام، حتى الذين لقيهم في المركبة التي أقلته من الأسكندرية إلى طرابلس. ويعود إلى تونس فيترجم لمن لقيهم من جديد. والسابع خصصه للعودة من تونس إلى سبتة عن طريق عنّابة ومالقة ورنْدة والجزيرة الخضراء. وبذلك تستطيع عند الإلمام بكل هذه التراجم، أن تتعرف على الحياة العلمية والأدبية المعاصرة في القطر بخاصة، ثم في الوطن العربي الذي زاره بعامة.وتستطيع بسهولة أن تستخلص من كل ذلك ثقافة العصر ومستوى الإبداع الأدبي، كما تستطيع أن تتعرف على الصلات بين الأندلس والمغرب وتونس ـ مثلا ـ من خلال الرجال الذين تنقلوا بين هذه الأقطار. كما تستطيع أن تتعرف على اهتمامات العلماء في كل قطر منها. بعضهم يغلب عليه الحديث وبعضهم الفقه، وآخرون الأدب. وتستطيع إلى جانب ذلك كله أن توازن بين

مستويات التفكير والرواية، ومستويات الإبداع الشعري على الأخص، بين هذا القطر وذاك ممن تناولهم الرحالة في كتاب «ملء العيبة».

مقارنة جزئية بين تونس ومصر، نأخذ فيها مثالاً من مصر وآخر من تونس، لنؤكد أن المقارنة بين العلماء والمثقفين عموماً، قد تسفر عن رؤية واضحة عن الاتجاهات العلمية والأدبية ومستواها واتفاقها أو اختلافها بين مختلف الأقطار العربية، في عصر لم تكن فيه المطبعة ولا المواصلات، مما يؤكد وحدة الثقافة وتقارب المستوى.

نأخذ من مصر الأسكندرية، ضياء الدين أبا الحسن علي الخزرجي، وهو غرناطي، انتقل في شبابه إلى مصر، مما يزيد في تأكيد هذه الوحدة الثقافية من خلال رجال العلم والأدب. وثقافته، كما يؤكد ابن رُشيد، مشتركة، حديثاً وروايةً ولغة وأدباً.

يهمنا من أدبه شعره الذي روى منه ابن رشيد قصيدتين ومقطعات. مضمون هذا الشعر يكاد ينحصر في التوجيه الديني والخلقي والتفكير في قيم الحياة. وقد يكون هذا الاتجاه جاء في آخر حياة الشاعر، فقد التقى به ابن رشيد وقد بلغ الخامسة والتسعين من عمره. وكف بصره أو ضعف، ولكنه كان ما يزال في وعيه الكامل وسلامة ذاكرته.

أما أسلوب شعره فيمتاز بالجزالة والتمكن من اللغة، والانسياب والدقة في التعبير عن المضمون.

يتحدث عن الدنيا فيقول :

فأي عيش بها ما شابه غير ... وأي صفو تناهى لم يصر كدرا
كم سالم أسلمته للردى فقضى ... حتفاً ولم يقض من لذاتها وطْرا
ومترف قلبت ظهر المجن له ... - فعاد بعد علو القدر محتقَرا

طوبى لمن جال في فكره فنأى   عما تغيب يوماً منه أو حضرا
وقام في حندس الظلماء مجتهدا   يردد الذكر والآيات والسُّوَرا
حتى إذا الليل ولى منه أكثره   وراقب الوقت لما قارب السحرا
أهدت له نسمات اللطف ساعة هل   من سائلٍ قد دعا مولاه واعتذرا ؟

وفي قصيدة يعارض فيها «بانت سعاد» لكعب بن زهير يمدح فيها النبي ﷺ، يقول في مقدمتها :

سيان عندي ان بانت وان وصلت   فوصلها بنصال الصد مفصول
ما إن يدوم لها عهد وإن غدرت   فهو الوفاء وعهد الغيد ممطول
فاعجب لمن بالغواني قد غدا كَلِفا   وعقدهن، وإن آلين، محلول

ونجد في الخاتمة هذه الأبيات يخطاب سامعي القصيدة :

يا سامعيها تَسلوا عن كل واقعة   منها، فربَّ سؤالٍ فيه تحصيل
وأخلصوا دعوة منكم لناظمها   فعزمه بحلول الشيب محلول
وحين عاين شمس العمر قد جنحت   إلى الغروب شدا والقلب متبول

أنت ترى أن الشاعر يجيد في أسلوبه الرائق السلس، رغم ولعه بالجناس وتقابل الألفاظ وتداعيها. ولكنك لا تكاد تشعر بتكلف أو تمحل في التعبير عن المضمون الذي هدف إليه الشاعر مهما يكن مضموناً عادياً مكرورا.

ويخيل إلي أن الشاعر الخفاجي ظل متأثراً بالأندلس يعيش - أدبياً - على ذكريات الشعر الغرناطي الرائق.

أما مثال تونس فنأخذه من ابن حبيش (ج 2 ص 83 ـ 126). عالم مشارك فقيه، وأديب محاضر شاعر، وكاتب أندلسي الأَصل من مرسية. نشأ بها وولي القضاء، ثم تجول في الأندلس، وانتقل إلى بجاية، واستقر في الأندلس. لخص ابن رشيد خصائصه الفكرية والأدبية في هذه الفقرة الدقيقة التي نقلناها آنفاً. ويزيد في التعريف به هذه العبارة أكثر دقة : «وكان شيخنا أبو بكر جيد الفكر، حاضر الذكر، وكان أيام طلبه مصروف العناية إلى الدراية، ولكن مع ذلك لم يخل من السماع والرواية. ولو تشاغل بالرواية لا اتسع له المجال، فإنه لقي أعلاماً من الرجال».

ويتحدث المؤلف عن شيوخ ابن حبيش، ويعرف بهم في فقرات قصار، كما يتحدث عن الكتب التي درسها وسمعها من أساتذته وشيوخه، والكتب التي درسها تؤكد سعة الأُفق الثقافي والمشاركة العلمية للمترجم. فهم علماء وأدباء ونحويون ولغويون، وهي كتب علم وأدب وفقه ونحو ولغة.

ورغم أن ابن حبيش التزم في آخر حياته الا ينظم شعراً إلا في توحيد الباري ومدح الرسول وآل بيته، إلا أن ما روى له ابن رشيد من شعر في غير هذه الموضوعات، يؤكد قوة عارضته، وصدق موهبته، وسعة اطلاعه، وجمال قصيده.

وقد روى مقطعات من قصائده تؤكد هذا. منها هذه التي نختّارها لتقدم لنا صورة عن شعر هذا العصر :

وأحورّ وسنان الجفون سقيمها … مهفهف أثناء الوشاح هضيمها
من الإنس لم يدر الفلاة، وقد سبى … لحاظاً وجيدا من مهاها وريمها
ضرعتُ إليه في الوصول فردني … مردٌ مليء بالحجاج عليمها

وهذه أبيات أخرى :

نفسي فـداك أمـا ترى صـوب الحيـا قـــد رام أن يحكي عَميم نـــداكا
والجـو منسكب الــدمـوع كأنـــه يهـــواك أو يرثي لمن يهـــواكا
واليـوم منهـــزم كـــأن ذمـــاءه صبري وقــد عنت لــه عينـاكـــا
والليــل يبــدي ظلمــة في وحشـــة كفـؤاد صبّـك أو كيـوم نـواكـــا

وهذه قطعة وصفية رائعة :

أنعم بيـوم لـــه في الحسن آثـــار تقضى بـــه لـــك آمـــال وأوطـــار
وجـه الـزمـان - وقـد راقت محاسنـه - لـــه سفـور ولـلإصبـــاح إسفـــار
والأرض في بركات منكم، فبهـــا في الليـــل والمحـــل أنـــوار ونـــوار
والروض يهــدي نسيمـاً ليس يشبهــه في الطيب إلا ثنــاء منــك معطـــار
والطير يفتنّ في الفتـــان من نغم تفسيرهـــا لـــك إجـلال وإكبـــار
والشرق ذو شفــق في البحر مـؤتلــق كأنمـا المـــاء شبت فـوقـــه النـــار
والشمس تطلــع كالـدينـار أخلص من محض النُضـار فهـامت فيــه نظـّـار
تبــدو مـع المـــاء طـوراً ثم يرفعهـا أوج ويـــدفعهـــا مـوج وتيـــار
مـا كان للبحر إذا حـاكى يـديـك نـدى أن يمسـك الشمس فيــه وهي دينـار

من هذه النماذج ندرك قيمة شعر هذا الشاعر الفـذ، وتمكنـه من لغتـهِ ومعـانيـه. وشعره ينقلنـا بسهولـة إلى الأنـدلس في عز مجـدهـا الأدبي. وتؤكـد هـذه النماذج تفـوق شعراء تـونس آنـذاك، وأغلبهم من أصـل أنـدلسي، على شعراء المشرق العربي آنــذاك، ويمثلهم

بالأخص - حسب ما بين أيدينا من أجزاء الكتاب - شعراء مصر القاهرة والأسكندرية.

ولابن رشيد منهج علمي في كتابة هذه التراجم - التي هي أشبه بمذكرات علمية يعتمد فيها على مجهوده الخاص - الاتصال والرواية المباشرة والسماع - أكثر مما يعتمد على الكتب ورواية الآخرين.

المنهج العلمي يتمثل في :

- التعريف بالشخصية تعريفاً دقيقاً : المولد والنشأة والأصل والتدقيق في التاريخ. ثم الوصف المادي والخلقي. ومثال التدقيق في تاريخ المترجم له قوله : سألت الشيخ ضياء الدين الخزرجي عن مولده، فقال : «سني خمس وتسعون سنة. فعلى هذا يكون في حدود التسعين وخمس المائة». ويدقق في تاريخ مقالبته للشيخ فيقول : «وذلك في الثامن من جمادى الأخيرة سنة أربع وثمانين وستمائة».

وفي ترجمته للشيخ جمال الدين العطار (ج 3 ص 299) : «قراءة عليه بلفظي في جامع عمرو بن العاص رضي الله عنه بفسطاط مصر في صبيحة يوم الجمعة التاسع عشر لرجب عام أربعة وثمانين وستمائة. وهو أول حديث سمعته عنه...».

ومثل هذه الدقة نجدها في ترجمته لأبي الفضل الدميري حيث يقول : «ومما سمعته عليه جزء من حديث أبي الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي الفقيه - وذلك في اثر صلاة الجمعة في السادس والعشرين لرجب عام أربعة وثمانين وستمائة بفسطاط مصر، بزاوية الإمام الشافعي من مسجد عمرو بن العاص رضي الله عنه - قلت له، أخبركم أبو الفضل مكرم

بن محمد بن حمزة بن أبي الصقر القرشي ـ قراءة عليه وأنتم تسمعون، في رابع ذي الحجة سنة خمس وعشرين وستمائة بجامع السراجين من القاهرة المعزية».

فأنت ترى أنه يدقق في الساعة واليوم والتاريخ والمكان والجزء من المكان والقطر. وهي دقة لا نكاد نجدها إلا عند بعض المحققين من رواة الحديث أو عند الباحثين من رجال العلم المحدثين.

ـ التعريف بعلم المترجم له. ويتبديء بعلوم الحديث والرواية مثلا، إن كان المترجم من رجال الدين وعلم الحديث. وفي هذا الجزء يتحدث عن شيوخه الذين روى عنهم ودرس في مجالسهم. ولا يغفل، وهو يتحدث عن صلة المترجم بشيوخه، ذكر تاريخ هذا الاتصال ـ وهي دقة وضبط قلما تجدهما عند الأقدمين ـ مما يساعد على التثبت في ضبط التطور الثقافي من خلال ضبط تاريخ الاتصال بين العلماء وتاريخ رواية الشعر عن الشاعر نفسه مثلا، وتاريخ وجود الكتب التي سمعها الراوي عن المروي عنه. وقد يكون بعضها قد ضاع الآن، ولكنا نتعرف على وجودها في عهد ابن رشيد أو في عهد الشخصية التي يترجم لها. ثم يروى عنه ما أنشده من شعره فيكتبه رواية عن الشاعر نفسه. وتبلغ به الدقة أحياناً في الرواية فيقول مثلاً : «أنشدنا شيخنا ضياء الدين هذا ـ الخزرجي ـ قصائد من قيله، وأمر أن يكتب لنا بعض شعره ودفعه إلينا.. فما قرىء لي عليه، وأنا أسمع : (ج 3. ص 46) «الشيخ الخزرجي كان قد نيف على الخامسة والتسعين، وكف بصره». ولذلك تجد الكاتب يدقق في طريقة الرواية، وفي كل كلمة يقولها : أمر أن يكتب لنا. ودفعه إلينا... قرىء لي عليه وأنا أسمع.

ـ من باب الدقة في منهجه العلمي نجده ينسب كل عالم إلى بلده الأصلي ويذكر التاريخ الذي هاجر فيه، هو أو جده ليلتحق بالقطر الذي التقى به فيه. فهذا أبو بكر القسطلاني الذي لقيه وصحبه وروى عنه في القاهرة، ينسبه إلى قسطيلية من

بلاد الجريد. وأصل آبائه منها. ويسأله في ذلك فيلي عليه : «جدي أمين الدين أبو الحسن علي بن محمد بن الحسن، خرج من توزر وجاء إلى مصر بكتاب من عمه الشيخ الصالح أبي بكر بن الحسن..» (ج 3. ص 415). وعن الخزرجي يقول : «مولده ببيغو (مدينة بالأندلس من عمل غرناطة)، رحل عن الأندلس قديما واستقر أخيرا بالأسكندرية» (ج 3، ص 43).ويقول في ترجمة أبي محمد الخلاسي : «وممن لقيته بتونس حماها الله، الشيخ الصالح الصوفي الزاهد الفاضل أبو محمد عبد الله بن يوسف بن موسى الخلاسي.. ثم رحل وحج ونزل تونس». (ج 2. ص 321). وعن الأشعري يتحدث فيقول : «الأديب الأبرع أبو العباس أحمد بن محمد بن ميمون الأشعري المالقي. انتقل منها صغيراً. أظنه ابن اثنتي عشرة سنة مع أبيه رحمه الله. فنزل تونس وبها قرأ وتعلم..» (ج 2، ص 409).

وهكذا يستطيع مؤرخ الثقافة العربية أن يتعرف على هذه الموجات العلمية التي جعلت المغربي أو الأندلسي مثلاً ينتقل إلى تونس أو مصر، والتونسي ينتقل إلى تونس أو مصر، والتونسي ينتقل إلى مكة أو المدينة أو الشام. وعن طريق هذه المعرفة الدقيقة نتفهم جيدا مسار الثقافة العربية الإسلامية ووحدتها، كما نتفهم جيدا الهجرات الكثيرة سواء فراراً من احتلال الأندلس مثلا، أو طلباً للمعرفة في البيئات التي كانت الثقافة فيها مزدهرة.

- ويدخل في منهجه العلمي أسلوب المحاضرة أو الامالي. ورغم أنه يستطرد، ويطيل أحياناً في الاستطراد، إلا أن ما يستطرد فيه يتصل بالموضوع الأَصيل الذي يتحدث عنه. في ترجمته لأَبي بكر ابن حبيش مثلا، يورد طريفة من طرائف المساجلة الشعرية. فقد روى أن ابن حبيش امتنع عن قول الشعر في غير توحيد الباري أو مدح نبيه وأهل بيته. ولكن حينما يخاطبه أحد رواده شعرا يجيب عنه تلميذه الخاص أبو محمد عبد الواحد بن محمد بن مبارك. وفي ذلك يورد ابن رشيد قصيدة له بعث بها إلى

ابن حبيش «أستـدعي أنســه، وأحرك الكريـة النفيســة نفســه، وأشكر لقــاءه وبره واحتفاءه» ومطلعها :

وصلتَ أبا بكر، غريباً لتونسا فاقررت عيناً بالقدوم لتونسا

فأجابه ابن مبارك على لسان شيخه :

وردت فأوردت المنى ما تبجسا لديك من الفضل الذي جل مونسا

وكتب إليه الوزير أبو عبد الله بن الحكيم قصيدة يتطلع فيها إلى زيارته مطلعها :

مــا للغريب إذا تــذكر آلـــه وبــلاده، لم يستطب أحــوالـــه
وإذا تنسم نفحـــة من أرضـــه أضحى يردد للجـوى أعــوالـــه
وغـدا يسح مـدامعـا ينسيـك مـن وبـل السحـاب بسكبهـا هطّـالـة

فأجابه ابن مبارك تلميذ الشيخ بقصيدة طويلة مطلعها :

ألف السقــام فـمـا يريـد زوالـــه ولهــانٌ ينعـم إذا تعــذب بــالَــه
دنف أطــاع من الصبــابــة أمرهـــا أتراه لا يعصي إذن عــــذّالـــه
نــادتــه منــك لــواحـظ منهـوكــة نهكتــه حتى مــا تبين خيــالـــه

هذا النوع من الاستطراد كان معروفاً عند مؤلفي ذلـك العصر، ولكنـه لا يبعـد بـابن رشيد عن منهجه العلمي الدقيق. إذ أنه يريد أن يؤكد به ظـاهرة انصراف ابن حبيش

عن نظم الشعر في غير ما التزم به، ولكنه ينتدب لذلك تلميذاً له يرضيه أن يجيب قصاده من الشعراء بشعر جيد.

ـ الفكرة المعلمية في الكتاب جعلته غزير الفائدة، حافلا بالمعلومات التي تعتبر شهادة معاصرة، مما يكسبها قيمتها العلمية. والمعلومات التي تحفل بها هذه الرحلة تتناول الحياة العلمية في الوطن العربي جميعه من الأندلس حتى بلاد الحرمين. ولا تكاد توجد ترجمة لعلم من الأَعلام الذين اتصل بهم إلا تحدث فيها عن شيوخه تعريفاً بهم، وعن الكتب التي درسها تقويماً وتعريفاً وتأريخاً، وعن الكتب التي ألفها. وقد تكون بعض هذه الكتب قد ضاعت، ويبقى التعرف عليها في مصادر قليلة في مقدمتها وأصحها ـ لأَنها شهادة معاصر كما قلنا ـ رحلة ابن رشيد.

ولنأخذ كمثال، ترجمته لأَبي جعفر اللَّبلي (ج 2، ص 250)، يتحدث عن الاتصال به في تونس في أسطر قليلة، ولكنه يخصص الترجمة الطويلة لمعلومات فريدة يبدأها بمن سمع منهم في بلاد الأندلس، وفي سبتة، ثم ببجاية وتونس والأَسكندرية والقاهرة ودمشق، ويعرف بهؤلاء الأَعلام الذين لقيهم اللبلي. بعد ذلك يتحدث عن كتبه، ما صنف منها بالمغرب وما كتبه بالمشرق زيادة في الدقة والضبط. وينتقل بعد ذلك إلى الحديث عن الكتب التي رواها، يعرف بهذه الكتب ومؤلفيها، ومن رواها عنهم اللبلي وقرأها عليهم، كتب أدب ولغة ونحو وحديث وقراءات وفقه. ومن الكتب التي قرأها اللبلي على شيوخه ندرك الأفق الثقافي الذي عرفه الوطن العربي في القرن السادس والسابع، والمتعة العلمية التي كان يجدها العلماء وهم ينتقلون راحلين بين المحيط والخليج، يبحثون عن العلماء أينما وجدوهم، يستمعون منهم، ويدرسون عليهم الكتب، ويسجلون إملاءاتهم، ويناقشونهم قضايا العلم والأَدب، يقولون الشعر ويروون عنهم شعرهم وشعر غيرهم.

ورحلة ابن رشيد من الكتب النادرة التي تقدم لنا هذا النوذج من المعرفة. ولذلك تعتبر مصدراً مهماً لتاريخ الثقافة العربية والإسلامية في العصر الوسيط.

بقي أن أشير إلى الجهد الذي بذله العلامة الدكتور الحبيب ابن الخوجة في إخراج الرحلة إخراجاً علمياً. وهو جهد يتحدث عنه الكتاب نفسه. ولكن الإشارة إليه تزيد في التعريف بهذا التراث العلمي الذي بذل فيه المحقق فوق ما بذل المؤلف من جهد. فقد نهج ابن الخوجة نهجاً علمياً في البحث عن مخطوطات الكتاب، حتى وقع على جزء من المخطوطة الأصل التي هي مسودة المؤلف. وعانى في النسخة خلطاً ليس غريباً في كتاب كتب منذ نحو سبعة قرون، فقد أدرجت في بعض الأجزاء أوراق أجنبية ليست من الرحلة، وسقط منها أوراق كان من الضروري أن يبحث عنها في مخطوطات أخرى. وكان على المحقق أن يقارن بين الخطوط التي كتبت بها النسخة التي اعتمد عليها، وكتب جزء منها بخط المؤلف، ولكنه يختلف قليلا أو كثيراً عما عرفه من خط المؤلف.

لم يصل المحقق لهذه النسخة إلا بعد معاناة. فقد بحث عن الكتاب في فاس ومراكش، وعن بعض الأجزاء منه في الأسكندرية والقاهرة والحرمين الشريفين. وانتهى به التطواف ـ بعد الأستانة والمكتبات الكبرى في أوربا ـ إلى الإسكوريال، حيث وجد أجزاء أو قطعاً متفرقة على الرفوف، غير مرتبة، وتحمل أرقاماً مختلفة، وفيها الأجزاء الثاني والثالث والخامس والسادس والسابع. وقد تأكد للمؤلف أن النسخة مغربية، كانت لدى المؤلف في سبتة وفاس مسودة بخطه. ما عدا الجزء الثالث فهو بخط غيره. والنسخة على ذلك مبتورة من أولها ووسطها. إذ ينقصها الجزء الأول، وهو الذي يتحدث فيه عن بداية رحلته من سبتة إلى بجاية، والرابع وهو الذي يتحدث فيه عن رحلته من مصر إلى بلاد الشام، بما فيها دمشق والقدس والخليل ونابلس.

وقد بذل المحقق مجهوداً كبيراً في ضبط الأعلام والتعريف بها والتعليق على كتب هؤلاء الأعلام مع ذكر المصادر التي اعتمد عليها، مما ضاعف من حجم الكتاب وأكمل معلوماته. وأنهى الجزئين اللذين صدرا حتى الآن (الثاني والثالث) بمجموعة من الفهارس العلمية للألقاب والبحوث التي اشتهر بها العلماء، وللأعلام التي وردت في كل جزء من الكتاب، وللأماكن والبلدان، وللكتب التي أشير إليها في النص، وللآيات والأحاديث والآثار والأشعار التي وردت في النص، وللتراجم التي تضمنها الكتاب.

وبذلك تكون رحلة ابن رشيد مطبوعة طبعاً علمياً وفر لها المحقق كل ما يملك من جهد متكور. نرجو له كامل التوفيق وصبر أيوب مع المطبعة حتى ينهي هذا العمل الجليل الذي بذل فيه - إلى جانب جهوده العلمية الأُخرى - جهد العلماء وصبر الباحثين وتفاني المخلصين. ولعل أكبر جزاء لهذا الجهد العلمي أنه قدم عملا كبيراً لتاريخ الثقافة والفكر في الوطن العربي مما لا يوفيه حقه أي جزاء.